الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية فى عهد اسماعيل

الحركة الفكرية . التأليف والترجمة . الصحافة . التربية . التعليم . علائق الأسرة . الأخلاق العامة . أزياء السيدات . المشروبات والمجالس . المتنزهات العامة . الفنون والملاهى . المسارح والتمثيل الموسيقى والغناء . الأفراح . أفراح الأنجال . المآتم . فوضى القضاء . الحفلات الدينية وغيرها

الحركة الفكرية . شتان بين مظاهر الحياة الاجتماعية فى أيامنا وبينها فى عصر اسماعيل . فقد قطعت مصر فى العهد الأخير مراحل شاسعة فى سائر نواحى التقدم الاجتماعى . أما فى عصر اسماعيل فقد كانت مصر لا تزال تتخطى فى هذا السبيل دور الطفولة . وكان التقدم الاجتماعى والفكرى لا يزال فى بدايته الأولى، رغم كل مظاهر الرقى السطحية التى استطاع اسماعيل أن يسبغها على عاصمة البلاد . ولم تكن بمصر يومئذ نهضة فكرية أو أدبية إلا تلك البداية الخاصة التى انحصرت فى بضعة من أعلام التفكير والأدب . وكانت اللغة العربية — سواء فى الدواوين أو معاهد التعليم — فى منتهى الضعف والسقم . أما فى الدواوين فقد كان أسلوب الكتابة العربية فى الغالب ركيكا لا سبك فيه ولا طلاوة ؛ وكان يوجد مع ذلك بعض كبار الموظفين ممن يجيدونها .

وكذا كانت الطرق الحسابية المتبعة فى أقلام الحسابات بالدواوين عتيقة ؛ وكان القائمون بها على الأخص من طائفة الأقباط ، سواء فى المديريات أو المصالح العامة بالقاهرة . وكان يندر أن يوجد فى أقلام الحسابات أحد من المسلمين . ومن الذين اشتهروا باتقان الطرق الحسابية والدى المرحوم حسن موسى وهو الذى كان يتولى اختبار طلبة مدرسة المحاسبة والمساحة فى الامتحانات العمومية .

وكانت المؤلفات والرسائل تكتب بأساليب مفككة ركيكة تغلب عليها الصبغة العامية . ولم يكن للتأليف شأن يذكر . واذكر أن معظم المطبوعات التى كانت تصدر يومئذ كانت اما مترجمة عن اللغات الأجنبية ، ولا سيما الفرنسية ، وإما من تراث

الأدب القديم . أما التأليف الحديث فلم يكن له أثر تقريباً . كذا كان معظم هذه المطبوعات كتباً مدرسية تترجم لاستعمالها فى المدارس الجديدة التى أنشئت يومئذ . وكان يشتغل بترجمتها جماعة ممن درسوا فى بعثات الحكومة فى فرنسا وغيرها ، فى مقدمتهم رفاعه بك وبعض زملائه

نواة النهضة الفكرية ومع ذلك فقد ظهر فى هذا العصر علماء مفكرون وأدباء نابهون وصحفيون ممتازون كانوا نواة النهضة الفكرية المستقبلة

وفى طليعة العلماء (١) على مبارك باشا الذى نهض بالتعليم ونظم طرقه وأساليبه حتى اقترنت نهضة المعارف باسمه

و (٢) محمود باشا حمدى الفلكى الذى خطط خريطة مصر لأول مرة وقد شهد علماء الفلك الاوربيون بنبوغه فى علمه وذكروه فى كتبهم

و (٣) محمد باشا قدرى المتشرع المعروف صاحب كتاب «قانون العدل والانصاف فى حل مشكلات الاوقاف» و (٤) حسين باشا فخرى الذى نظم المحاكم الاهلية على نمط حديث

***

وفى مقدمة الادباء الشيخ على أبو النصر والشيخ على الليثى شاعرا المعية (ولم نعثر على صورتيهما)

وكان الشيخ على الليثى — فوق انه شاعر — سمير مليح النكتة حاضرها . من ذلك ان احمد خيرى باشا مهردار (حامل الخاتم) اسماعيل اراد ان يداعب شاعرى القصر فأمر أن تلصق ورقة على باب الغرفة الخاصة بهما فى عابدين وبها الآية القرآنية :

« **انما نطعمكم لوجه الله** . . . » فلما رآها الشيخ على فطن للدعابة وعرف مصدرها ونظم هذين البيتين من الزجل :

كان لى طحونة جوا الدار ... تدور وتطحن ليل ونهار

دورت فيها الطور عصى ... علقت فيها المهر دار

وكتبها فى ورقة ألصقها بباب خيرى باشا وكان ذلك رداً ظريفا استملحه الخديوى وظل يردده مع ندمائه

و (٥) عبد الله فكرى باشا صاحب (الفوائد الفكرية) والذى اقترنت نهضة المعارف باسمه فى مصر

و (٦) احمد خيرى باشا وقد تلقى العلوم العربية فى الأزهر ونبغ فيها وفى اللغة التركية وهو من أصل شركسى و (٧) محمود باشا سامى البارودى صاحب الديوان والمختارات وأحد زعماء الثورة العرابية و (٨) محمد بك عثمان جلال الشاعر الزجال والمترجم القدير الذى نقل الى العربية بعض روايات فولتير التمثيلية كما ترجم أساطير لافونتين (Fables de La Fontaine) وهى مجموعة قصص خرافية صيغت على لسان الطير والحيوان تتضمن عبراً ومواعظ بالغة . وقد أحسن جلال بك اختيار الأمثال العربية التى تقابل هذه المعانى فى اللغة الفرنسية وسماها : « العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ »

ومما نذكر من زجله الظريف بيتين ارتجلهما أمام رياض باشا يشكو تأخره عن أقرانه الموظفين فى الترقية :

الخير عم الناس وفاض ما حد الا واستكفى
الا أنا يا سيدى رياض وقعت من قعر القفه

ومن فكاهاته أنه كان مدعواً فى دار محمد بك سكر الكتبى وأحد أدباء عصره للطعام مع بعض الأصدقاء فاستبطئوه وعندئذ دخل رب الدار إلى (الحريم) وبينا هو كذلك سمع الضيوف دقاً بالهاون فتساءل بعضهم ماذا ؟ ألا يزالون يهيئون الطعام . فأجاب محمد بك عثمان جلال : لا . . دول بيكسروا راس « سكر ! ! »

و (٩) اسماعيل صبرى باشا المجدد فى الشعر العربى والذى لا تزال مقطوعاته تغنى حتى اليوم وهى مقطوعات خالدات

* * *

ومن الصحفيين (١٠) أديب اسحق بك صاحب جريدة (مرآة الشرق) التى امتازت بتحريرها ووطنيتها وكان أحد محررى الجريدة الرسمية

وعبد الله نديم خطيب الثورة العرابية المعروف صاحب (الطائف) و(لسان الأمة) وغيرهما (ولم نعثر على صورته)

و (١١) أبو نضارة زرقاء صاحب الجريدة المعروفة باسمه والتى كان لها شأن عظيم فى إيقاظ الشعور القومى لأنها كانت تكتب باللغة المتداولة (العامية) بأسلوب فى متناول الجميع



(١) علی باشا مبارك



(٢) محمود باشا حمدی الفلکی



(٣) محمد قدری باشا



(٤) حسين فخری باشا



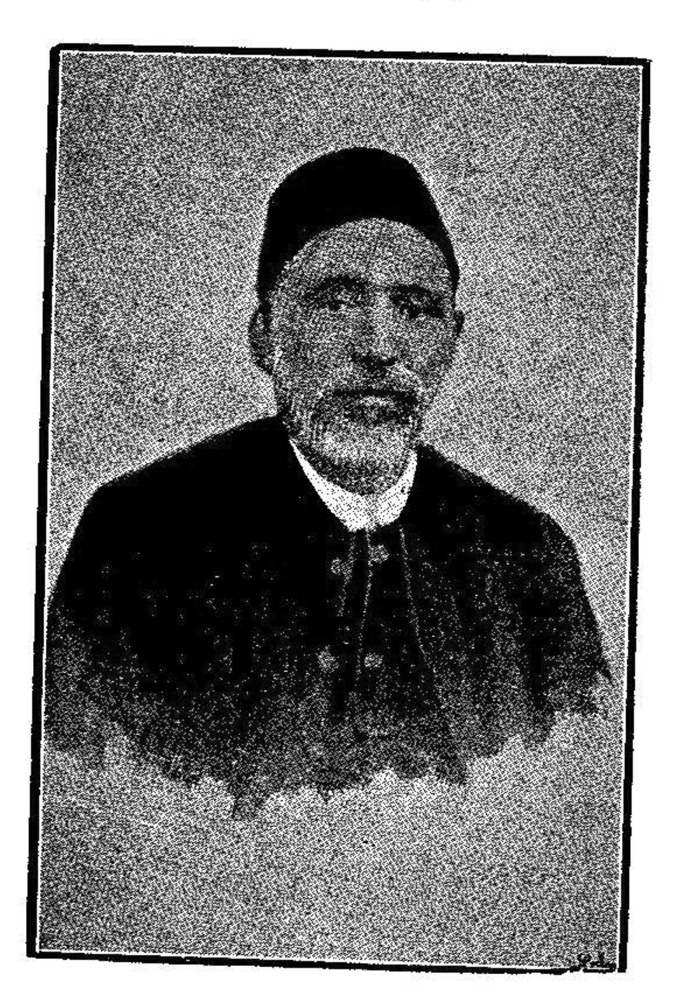
(٥) عبد الله فكرى باشا



(٦) احمد خيرى باشا



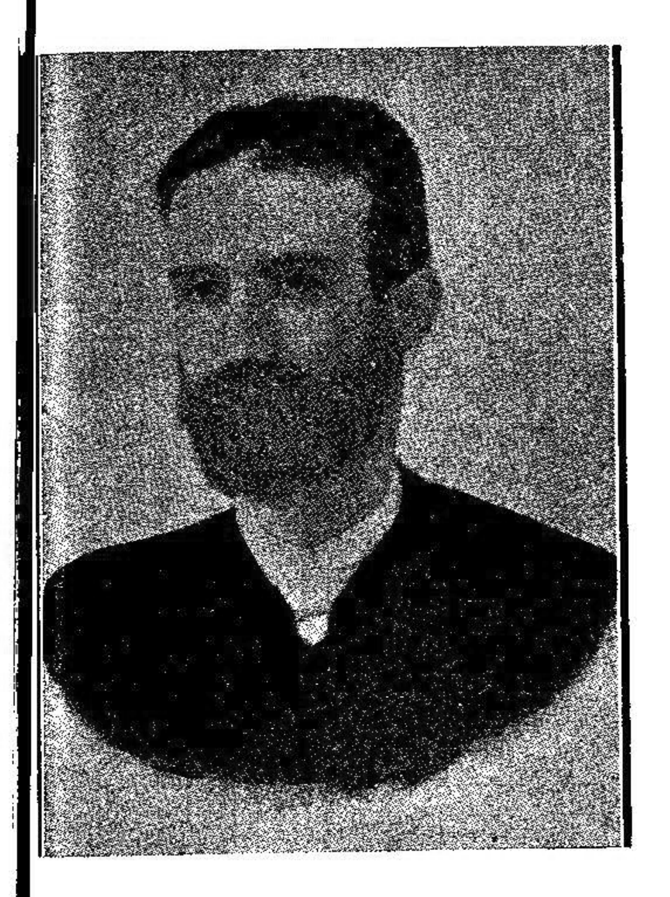
(٧) محمود سامى البارودى باشا



(٨) محمد عثمان بك جلال



(٩) اسماعيل صبرى باشا



(١٠) أديب بك اسحاق

الصحف . وكان معظم الصحف فى ذلك العهد يصدر باللغات الأجنبية كالفرنسية والايطالية والتركية واليونانية وكان بعضها يصدر بالعربية واحدى تلك اللغات .

وكانت تصدر فى ذاك الوقت أيضاً صحيفة « وقت » و « روضة المدارس » التى كان يقوم بتحريرها أفاضل الأساتذة، ونوابغ الطلبة . أما ما عداها فكانت فى الغالب وريقات ضئيلة وغالباً عامية .

وهذا عدا النسخة العربية التى كانت تصدر من الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية الآن) بعد أن كانت تصدر باللغتين العربية والتركية . وكان للحكومة أيضاً



(١١) ابو نضارة زرقا.

جريدة رسمية باللغة الفرنسية وهى السابق ذكرها

التربية والتعليم . كان التعليم فى مدارس الحكومة فى المبدأ داخلياً كله على نفقتها . وكان يصرف للتلاميذ المأكل والملبس بالمجان . وكان الخبز من النوع المسمى « صامولى » وهو لذيذ الطعم ، أسمر اللون ، ويصرف للتلميذ منه يومياً ثلاثة أرغفة مع الخضار واللحم والأرز وأحياناً الحلوى (سد الحنك) . وكان العدس والفاصوليا هما أكثر مايقدم .

أما اللباس فكان فى الصيف سروالا (بنطلوناً واسعاً) أبيض من التيل وفوقه فرتيكة (جاكته) ، بحزام من الجلد له قفل من النحاس مربع رسم فى وسطه هلال وداخله نجمة . وفى الشتاء يرتدى التلميذ نفس هذه الملابس وفوقها معطف طويل من الجوخ .

وكانت مواد الدراسة فى اللغات ـ غير العربية ـ التركية ، والفرنسية ، والانجليزية ، والألمانية . ثم المواد الأخرى مثل الحساب ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والهندسة وغيرها من العلوم ، ثم الرسم والخط الأفرنجى والعربى .

وكان أولو الأمر يهتمون بتعليم اللغة التركية اهتمامهم بتعليم اللغة العربية . ولذلك ترى كثيراً من أفراد الطبقات العالية يتكلمون التركية ويتراسلون بها .

ونذكر بهذه المناسبة حادثة ظريفة ذكرها لى والدى : تلك أن الشاعر الأديب صبحى بك عند ما اختير مديراً للغربية ، لم يكن يملك ما يفسح له فى مظاهر الأبهة التى يتطلبها المنصب الجديد . فاستعار عربة من صديقه محمد سيد احمد باشا واعداً بردها فى القريب . ولكن مضى طويل على الوعد ولم يبر به . وكان بين الصديقين مراسلة . وحدث أن كتب الأديب صبحى بك إلى صديقه محمد باشا رسالة بالتركية فرد عليه هذا قائلا : « لماذا تكتب لى بالتركية ؟ لعلك نسيت (العربية) ؟ ! »

وفى الصفوف (الطوابير) كان بعض ضباط المدارس يأخذون التلاميذ بنوع من الأنظمة العسكرية فى سيرهم . وكان هناك بعض « البروجية » من السودانيين للمساعدة فى تنظيم الخطى على صوت البورى أثناء المسير .

وكان المتبع فى العقوبات اعطاءهم الخبز دون أدم ، أو الجثو على الركبتين ، أو استعمال السوط (الزخمة) من الجلد لضرب التلميذ على رجليه بواسطة « الفلقة » لشد أرجلهم ، وكذلك الحبس فى « الزنزانة » بالمدرسة ، وهى غرف صغيرة مظلمة بها منفذ بسيط



العقوبات التأديبية

ثم أنشئت بعد ذلك الأقسام الخارجية بالمدارس ، وفرضت المصروفات فى أول الأمر على بعض التلاميذ بدون نظام معين ، بل كل بحسب مقدرته المالية . وبدىء بتنفيذ ذلك النظام فى مدرسة المبتديان والمدرسة التجهيزية .

وكانت المدرسة الحربية من أهم المدارس ، وناظرها يومئذ لارمى باشا الفرنسى ، وكانت مقسمة الى أربعة أقسام : البيادة ، والسوارى ، والطبجية وأركان الحرب . وقد تخرج فيها كثير من رجال الجيش المصرى النوابغ الذين قادوه — وكان يبلغ يومئذ ثلاثين ألفاً — فى عدة حوادث هامة فى مصر وخارجها وخصوصاً فى حروب الدولة العثمانية

وكان هناك من المدارس الأخرى : مدرسة اللسان المصرى القديم واللغة الحبشية وناظرها بروكش بك . ومدرسة الصم والعميان بالصليبة ، وناظرها أنسى بك .



جشم آفت خانم افندى الزوجة الثالثة لاسماعيل

وقد أنشأت الزوجة الثالثة لاسماعيل أول مدرسة للبنات بالسيوفية ، وناظرتها السيدة روزة. وكان يعلم فيها القراءة والكتابة ، والشيء البسيط من الحساب وغيره والأشغال اليدوية ، وشئون المنزل . وكان عدد التلميذات قليلا ، حتى إذا زاد الأقبال عليها وضاقت بهن اعتزمت إنشاء مدرسة أخرى أعظم منها ، وأتمت بناءها فعلا . وقبل افتتاحها كان اسماعيل قد بارح القطر هو وزوجاته معه ؛ فأهمل شأن المدرسة وشغلتها الحكومة ببعض الدواوين ، ومكانها الآن تشغله وزارتا الأشغال والمواصلات ، ودار البرلمان وما حوالها .

وأما تعليم البنات فى المنازل فكان قاصراً على الأشغال اليدوية ، وشئون المنزل ، والقراءة دون الكتابة ، حتى لا تستطيع البنت استخدام الكتابة طوع نزعات الشباب .

وبدأت نواة التعليم الأهلى تنبت فى مصر فى نفس الوقت ، فأسست أربع مدارس أهلية

وكذلك بدأت الجاليات الأوربية تنشىء المدارس العديدة ، فى القاهرة والأقاليم . وقد فتح فى وجه خريجى هذه المدارس باب التوظف فى مكاتب البريد ، وفروع مصلحة السكة الحديدية، والمحال التجارية ، والترجمة فى القنصليات ، والمحاكم المختلطة ، والمصارف. فأقبل الطلبة عليها إقبالا شديداً .

علائق الاسرة . كان احترام الأبناء للوالدين عظيما . ففى الصباح كنت أذهب إلى والدى فأقبل يده ، ولا أجلس حتى يأذن لى . وكان أخى الأكبر لا يجرؤ على التدخين

فى حضرة أبيه حتى وفاته ، مع أنه كان كبير السن. وكان الابن يقيم فى منزل الأسرة ولو كان متزوجاً ، أو موظفاً ، دون أن يدفع شيئاً من النفقات ؛ بل كان ذلك موكولا لرب الأسرة . أما مرتب الابن فكان يترك له ينفقه فى خصائصه ، ونفقات زوجته كذلك . وكان يخصص لكل ولد جناح من المنزل ليسكن فيه مع زوجته بين أحضان الأسرة

الرقيق . وكان الرقيق يكاد يعتبر يومئذ جزءاً من الأسرة . وكانت تجارة الرقيق منتشرة فى البلاد ، سواء منه الأسود والأبيض .

وكان يوجد فى القاهرة بيوت خاصة ببيع الرقيق تعرض بواسطة (يسرجيات أو يسرجيين) . فكان يرتاد هذه البيوت من يريد اقتناء الجوارى أو المماليك أو العبيد . وكان المعتاد أن يكشف على الجنسين وهم عرايا . وقد يبالغون فى ذلك ، خصوصاً بالنسبة للإماء ، فيوضعن فى طسوت ملأى بالماء ، ثم يخرجن ، فان نقصت كمية الماء دل ذلك على الصحة

وكان يوجد بين الجراكسة عائلات بتمامها ، ذكوراً وأناثاً ، كباراً وصغاراً ؛ وقد اقتنى أبى عائلة مؤلفة من رجل وامرأة ، وولد وبنت صغيرين .

وكان مالكو الرقيق يستمتعون بالأناث منه (الجوارى) وخصوصا البيض منهن . وكن يملأن بيوت الكبراء . وبذا اختلط الدم المصرى بدم الجراكسة فى بعض الأسر . وكان المصريون يعاملون الرقيق معاملة حسنة ، فيرسلون الذكور للمدارس ويعتقونهم. ومن هؤلاء من وصل إلى وظائف هامة فى الجيش والادارة ، حتى ان شوارع حلوان قد سمى أكثرها بأسمائهم ؛ ومنهم من كان يزوج بناته منهم . أما الأناث فكان يعنى بتزويج الكثيرات منهن .

وقد ضعفت تجارة الرقيق على أثر المعاهدة التى عقدت فى شأنه فى عهد اسماعيل ، ثم انقطعت تجارته بعد ذلك بتاتاً .

الأخلاق العامة . يمكن القول بأن الحالة الخلقية العامة كانت حسنة ؛ وكانت أميل كثيراً إلى الحشمة والفضيلة مما هى اليوم ؛ ولم يكن التهتك معروفا فى الملبس أو الخروج أو السير أو غيرها ، إلا بين العاهرات فى الأحياء الخاصة بهن . وكان الحجاب من لوازم المرأة ، فلم يكن يتاح لها الخروج إلا فى وقار وحشمة .

ومع هذا فقد كان هناك نوع ظريف من المغازلات الخاصة ، ذلك ان بعض الفتيان كانوا يتعرفون ببعض الأسر ، فيقضون ليالى فى بيوتها ، كلها أنس وسمر وطرب ؛

وقد يشركون معهم بعض زملائهم متفكهين ، فيقودونهم فى العربات إلى هذه المنازل معصوبى الأعين، فلا ترفع العصابات عن أعينهم إلا داخل المنزل ، وبعد قضاء السهرة يخرجون كما دخلوا معصوبى الأعين ؛ حتى لا يعرفوا فى أى مكان كانوا ، ولا فى أى منزل أتيحت لهم تلك السهرات . وكان أخى محمود افندى وهى شاباً وسيما مولعاً بالطرب جميل الصوت ، وكثيراً ما كانت وسامته وجمال صوته يتيحان له فرصاً كهذه لا يدرى أين ولا كيف سنحت ، حتى يكون فيها ، وحتى يستمرىء لذاتها .

وقد كانت تذاع يومئذ روايات غريبة، منها اقتناص أفراد من رجال الجيش الأشداء بجهة العباسية ليلا ، ووضعهم فى عربات مقفلة ، والسير بهم إلى دار سيدة عظيمة الشأن يتوصل إلى مقرها بواسطة سرداب تحت الأرض ، ثم لا يعرف لهم من بعد ذلك مقر ! على ان هذه اشاعات ربما جاوزت الحقيقة . وانما المؤكد الذى أعرفه أنها كانت ذات أثر فى منع الكثيرين من المرور ليلا بتلك الجهة .

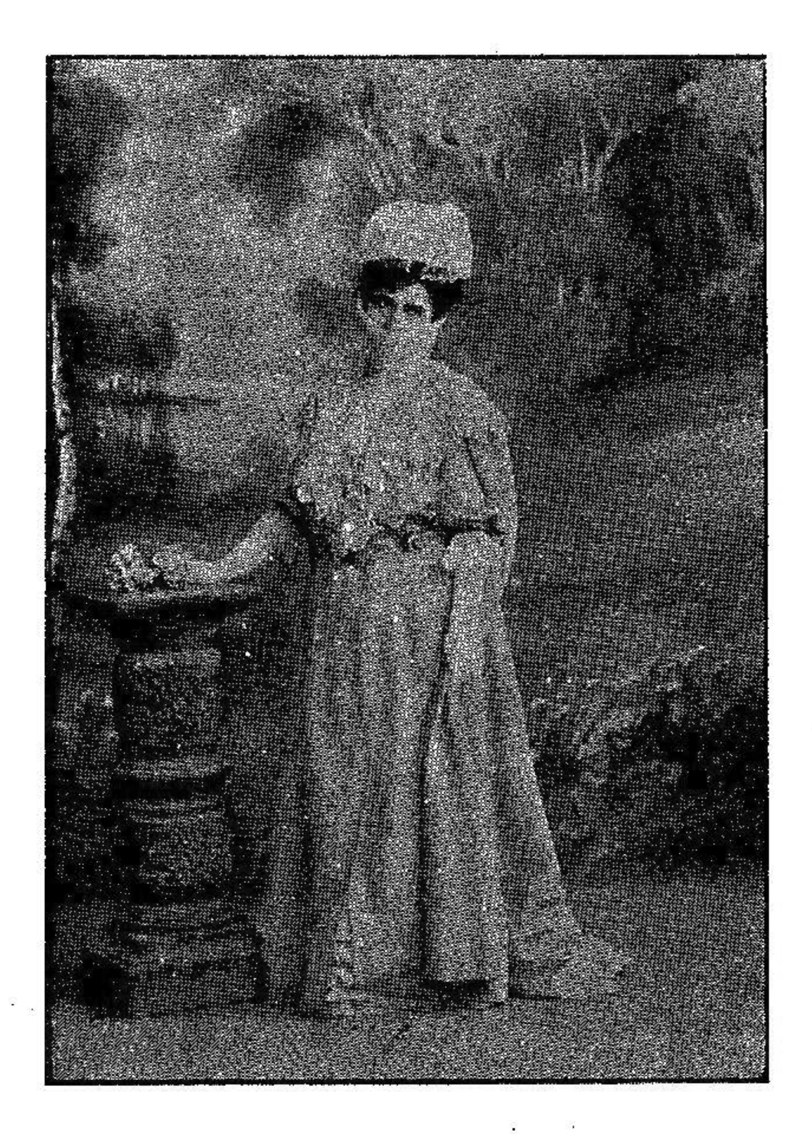


السروال واليلك

أزياء السيدات . ولعل مما يتصل بالحالة الخلقية العامة أزياء السيدات فى ذاك العهد . فنساء الطبقة العالية كن يرتدين لباسا يسمى « الشنتيان » — وهو عبارة عن سراويل واسعة جدا تضيق عند القدمين أحيانا بحيث تتمكن السيدة من الجلوس على الشلتة « الحشية » — وهى عبارة عن مرتبة أرضية ؛ وقد كانت مستعملة قبل انتشار الأثاث الأفرنكى - وفوق الشنتيان « السلْطة » أو صدار بدون أكام . ثم « اليلك » وهو رداء طويل وكان هذا الزى غالبا من الحرير المزركش ، (كما فى الصورة .)

أما حين يخرجن للزيارات ، فكانت الفراجية ذات الأكام الواسعة المفتوحة ،

وفوق الرأس ما يسمى « خوطوز » أوعزيزية ، وهى غطاء للرأس مبطن من الداخل بقماش فوقه ورد صناعى يسدل عليه « التل » بحيث يرى الورد ، ثم تحته « اليشمق » وهو من القماش الشفاف، ومنه تظهر العينان فقط. وكان هذا الزى منتشراً فى السرايات وعند كبار الأهالى ولا سيما التركيات ، وهو لباس جذاب جميــــل. وكانت العربات هى وسيلة الانتقال لنساء هذه الطبقة .



اليشمق والفراجيه

أما نساء الطبقة الوسطى فكن يرتدين الشنتيان والسلطة كذلك ولكن من قماش متوسط . وعند الخروج للزيارة يرتدين « السبلة » وهى عبارة عن قميص من الحرير بدون أكمام ، وفوقها « حبرة » تغطى الجسم من الرأس إلى القدم ؛ وهى فى الغالب من الحرير الأسود . و « البرقع » الأبيض للوجه ؛ والمناديل مطرزة بأطار من « القوية » كغطاء

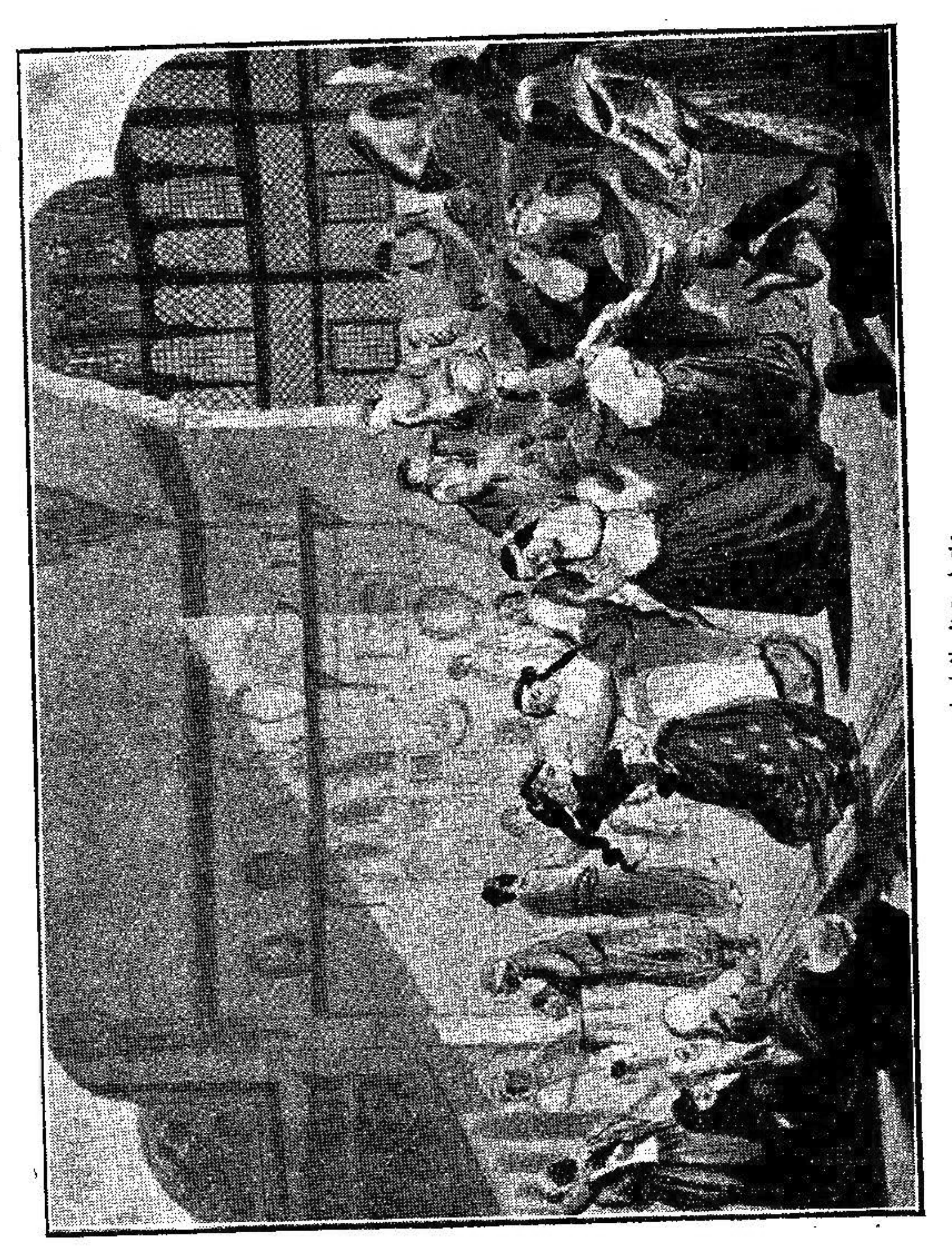
للرءوس تحت الحبرة ، ويحتذين خفاً أصفر من قطعتين : قطعة تغطى القدم والأخرى تلبس داخل الأولى وتغطى الساق . وعند الخروج يركبن الحمير بعد أن يوضع فوق البرذعة سجادة ويرفع الركاب بحيث تجلس السيدة القرفصاء . ويتولى « المقدم » الخادم قيادة الحمار .



خروج السيدات للزيارات

وكان يتبع فى استقبال الزائرات،بالمنازل أن توضع «كنكة» القهوة فى عزقى ، وهو إناء من المعدن مجوف مشدود بثلاث سلاسل، تجتمع من أعلاه على هيئة كفة الميزان تمسكه خادم ، وفى الطبقات العالية كان طقم القهوة من الفضة أو الذهب وتصب منه فى الفنجان الذى يوضع فى ظرف ، ويقدم بلطف للزائرة

وهنا نورد صورة حفلة فى احد بيوت القاهرة لاستقبال بعض الاجانب؛ ويرى فيها ازياء بعض السيدات وأزياء الرجال ، وهو السروال والسلطة والطربوش المغربى ؛ ويشاهد أيضاً بعض الراقصات المصريات احتفاء بزيارة هؤلاء الاجانب .



حفلة استقبال الزائرات

ولا تتكلم عن أزياء الطبقة الدنيا وعاداتها فانها لم تتغير عما كانت عليه الا قليلا .
أما ملابس أعضاء العائلة الخديوية فسيراها القارىء فى الفصل المعقود للحياة الداخلية فى سرايات اسماعيل

المنتديات والمجالس . كانت هناك مقاه ، ولكن لم يكن يرتادها من الأوساط المحترمة إلا القليل ؛ لأن الكبراء كانوا يجعلون سهراتهم فى منازلهم التى يفد عليها الجلساء

والأصحاب ؛ كما كان يؤمها الكثيرون لمجرد الافتخار بأنهم يجلسون فى مجلس فلان الناظر أو العظيم .

ولقد كنت أذهب مع والدى إلى منزل رياض باشا ، فلاحظت ان معظم الجالسين لا يشتركون فى المناقشات، بل يلزمون الصمت كأن على رءوسهم الطير ؛ وقد جلسوا فى تحفظ وتزمت . فلما سألت والدى عن سر هذه الحالة ، أجابنى بأنهم يفعلون ذلك احتراما لرب الدار وتوقيراً له .

أما رجال الطبقة الوسطى فكانوا يمضون سهراتهم عند أصحابهم من هذه الطبقة

المتنزهات العامة . كانت جهـــة شبرا بمزاوعها النضرة ، ومناظرها الجميلة ، هى المكان المطروق للتنزه والرياضة عادة . فكان يقصد اليها المرتاضون مشاة وركباناً ؛ وكان المار يرى الدواب المطهمة تغدو وتروح ، وأحياناً واقفة فى انتظار أصحابها ممن حضروا اليها للرياضة ، مكبلة فى اللجم ، صفوفا على جوانب المزارع . كذلك كانت ترى العربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة تحمل أفراد العائلة الخديوية ومن يدانيها من كبار السراة والأعيان ؛ يتقدم هذه العربات قمشجية (سياس) لافساح الطريق واتماماً لمظاهر الأبهة .



السياس

وكان يرى بين المتنزهـــين فخرى باشا ممتطياً جواده الجميل وأمامه (السايس) كما كان يفعل ذلك بعض ذوات العاصمة .

ويظلل شارع شبرا وقتئذ صفوف من شجر الجميز العتيق المزروع من عهد محمد على باشا .

وكانت مقر كثير من العائلات الكبرى وبهاغير قصر . من ذلك: قصر زينب خانم افندى بنت محمد على باشا ؛ وقصر اينجو خانم افندى أرملة سعيد باشا والى مصر (ويرى القارىء صورتيهما مع صورة البرنسيس فاطمة خانم إحدى كريمات اسماعيل بزيهن جالسات على مقعد عال ينصتن للغناء)



البرنسيسات

وقصر شيكولانى البديع الزخرفة ، الحافل بالتماثيل النادرة. وغير ذلك من قصور كانت تحيط بها حدائق غناء شاسعة.

وكانت شبرا مشهورة كذلك بقهوة سى خليل ، التى يقصدها ذوو « الكيف » ومنهم بعض السراة فيجدون فيها مايشاءون . وقهوة خليل هذه هى التى قال فيها أحد الظرفاء :

كل شىء فى مصر يوجد   الا قهوة سى خليل

الكيوف فيها نضيفه   والحشيش مالوش مثيل

وكان هناك طريق الجيزة ، ولكن كان يقصدها القليلون لبعدها عن المدينة . وكانت خالية من الأبنية تقريباً . وكان اسماعيل قد عنى بهذه الطريق قبل فتح قناة السويس ليسهل للمدعوين زيارة الأهرام

الفنون والملاهي

التمثيل . قدمنا ان الخديوى اسماعيل ، هو أول من عنى بهذه النواحى ، حتى تصبح مصر قطعة من أوربا . وقد قال إنها أصبحت كذلك بعد الذى أقامه فى القاهرة من المنشآت الحديثة ، وبعد ان افتتح قناة السويس فى عظمة وبهاء وبذخ . وكانت الأوبرا أول منشآته الفنية ، وقد استدعيت بعض الفرق الاوربية للتمثيل فيها ؛ وأول رواية ظهرت على مسرحها هى « عائدة » التى ألفها ماربيت باشا ولحن أنغامها « فردى » الموسيقار الايطالى الاشهر . أما تمثيل الروايات غير الغنائية فقد أنشأ له « الكوميدى فرانسيز » (المسرح الفرنسى الهزلى) وكان موقعه مكان دار البريد الحالية فى شارع طاهر

ثم بدأت تفد على مصر بعض الفرق السورية ، فكان ذلك منشأ المسرح العربى الأهلى ؛ وأولى هذه الفرق هى فرقة (سليم النقاش) وتلتها فرقة (يوسف خياط) التى مثلت فى الاوبرا أمام اسماعيل . وكانت الروايات التى تمثل ذات مغزى اجتماعى إصلاحى ، ومنها رواية « أبو الحسن المغفل » ، ورواية « هرون الرشيد » ، ورواية « أنيس الجليس » ، ثم بضع روايات لموليير وهى « البخيل (١) » . « والطبيب رغم أنفه (٢) » ، « والشيخ متلوف (٣) » ، و « النساء العالمات (٤) » ؛ وقد عربها عثمان بك جلال — الذى مر ذكره .

ولكن التمثيل فى هذا الوقت لم يكن قائماً على أصول فنية ، لأن المشتغلين به احترفوه من تلقاء أنفسهم دون تعلم لقواعده .

ومما يذكر عن فرقة يوسف خياط انها لم تجد سيدات يقمن بالأدوار فى الرواية فعهدت بذلك الى غلمان لم يتقنوا أدوار النساء بطبيعة الحال . وكذلك فعل القبانى — وهو فى سن متقدمة — فانه كان يقوم بدور المرأة فى تمثيله ؛ وذلك لما كان مفهوما عن التمثيل من انه تهريج لا يليق بامرأة أن تشترك فيه .

وكان اسماعيل ، لعطفه على التلاميذ ، يرسل تذكرة سنوية لتلاميذ الفرقة الاولى من المدارس العالية للتناوب فى حضور الاوبرا

---

(١) هى بالفرنسية : —

(1) L'Avare, (2) Le médcin malgré lui, (3) Tartuf, (4) Les femmes savantes.

وكان تلاميذ المهندسخانة — ومنهم أخى المرحوم محمدتوفيق — يرغبون أحيانا التوجه جماعات ، فماذا كانوا يفعلون ؟ قلدوا التذكرة فكانتا تذكرتين يدخل بهما اثنان ثم يخرج أحدهما فيدخل اثنان وهكذا .

الموسيقى . وكان فن الموسيقى ناشئا كذلك ، فلم يكن هناك إلا فرقتان معروفتان هما : الفرقة السودانية بالجيش . وهذه كانت ميزتها ان أفرادها يعرفون العزف على النوتة باتقان ، واشتهرت بنظامها فأحرزت بذلك مكانة عظيمة ؛ حتى إذا الغيت بعض فرق الجيش ، مراعاة للاقتصاد كما قدمنا ، استغنى عن هذه الفرقة ؛ فاجتمع بعض أفرادها وكونوا فرقة أهليـة ، كانت فى المقدمة نظراً لشهرتها السابقة . وأما الفرقة الثانية فكان صاحبها عبدالله افندى التركى . وهى فرقة منظمة ذات لباس خاص ؛ وكانت تقوم أيضا بتمثيل بعض القطع الهزلية فى الليالى . وكان عبد الله افندى هذا أمرد (أجرودا) فساعده ذلك على أن كان يتزيا بزى امرأة ويرقص رقصاً تركيا .

وأما ماعدا ذلك من الفرق فلم يكن منظما ولا مشهوراً .

وكان نصيب المزمار والطبل البلدى كبيراً ، ولا سيما فى أفراح الطبقة الفقيرة . وكانت أشهر فرقة يومئذ جوقة الفناجيلى من أهالى دمياط

الغناء . بيد أن الغناء كان أحسن حظاً من التمثيل والموسيقى ، لظهور مطربين ومطربات من الطراز الأول ، استطاعوا أن يحرزوا مكانة وشهرة . وفى مقدمة هؤلاء جميعاً عبده الحمولى ، فى الرجال ، ثم محمد عثمان . وفى النساء ألماس ، ثم الوردانية .

وهؤلاء كانت تغدق عليهم الأموال بكثرة ، ويدعون الى الحفلات الفخمة ، فى بيوت الامراء والنظار والعظماء .

وكانت القطع التى تغنى معظمها من قصائد الشعراء الأندلسيين والعباسيين . كذلك وضعت بعض الأدوار والمواليا المناسبة لروح العصر

عبده الحمولى . ولد عبده الحمولى فى سنة ١٢٦٢ هـ . فى طنطا على ما يقال . وكان والده تاجرا ؛ وبها تعلم العزف على القانون ، كما تعلم مبادىء الغناء

وحدث بين والده وشقيقه الأكبر نزاع ؛ فأخذه شقيقه هذا ، وغادرا مدينة طنطا إلى مصر ؛ وتصادف أن تعرف بهما « المعلم شعبان » أحد المغنين ، الذى اعجب بصوت عبده فآواه وأخاه ، وعاد بهما إلى طنطا وعملا معاً زمناً ما



عبده افندى الحمولى

ثم رجع « المعلم شعبان » إلى مصر ومعه عبده ؛ فعملا فى قهوة كانت تعرف فى هذا العهد بقهوة خان أغا فى « غابة الأشجار » ومكانها الآن حديقة الأزبكية ، فتهافت الناس للسماع ، واتسع رزق المعلم ، فحرص على عبده خيفة أن يخرج من يده ، ويشتغل مع سواه ؛ ورأى أن خير وسيلة تربطه إلى جانبه هى أن يزوجه ابنته ، وكان ذلك

ولكن شعبان أخذ يسيء معاملة عبده ويستذله ؛ فشق عليه ذلك حتى هرب والتجأ إلى رجل طائر الصيت فى فن الغناء يسمى « المقدم » ، فأعجب به ، وعمل على خلاصه مما هو فيه ، فضمه إلى « تخته » ، وقطع علائقه بزوجته .

وبعد ذلك وفد إلى مصر رجل يسمى « شاكر » من أهالى حلب — وهو الذى ابتكر (الموشحات) فى مصر — فاتصل به عبده ، وتلقى عنه موشحاته وغناها ؛ إلا أن طبيعته الفنية وذوقه الموسيقى ، هيأ له أن يسمو فى فنه فوق ما تلقاه ؛ ومازال يرتقى فى فن الغناء ويشتهر ويذيع صيته ، حتى ألحقه اسماعيل باشا الخديوى بمعيته ؛ وسافر معه إلى الاستانة ، فسمع هناك الموسيقى التركية التى نبهت استعداده الكامن للاقتباس

والابتكار . وزاد على ذلك أن اسماعيل جلب فى عودته لمصر جماعة من أكابر المغنين فى الاستانة ، وكان عبده يتصل بهم ، ويأخذ عنهم ما يوافق المزاج المصرى ، ويناسب الطريقة العربية . ورأى فى الموسيقى التركية كثيراً من النغمات التى لم يكن للمصريين علم بها ، فأضافها إلى ما يحذقه . ومن الأدوار التى كان عبده يغنيها :

أشكى لمين غيرك حبك ... أنا العليل وانت الطبيب
اسمح وداوينى بقربك ... واصنع جميل اباك أطيب

ومنها ،

غرامك علمنى النوح ... يا حبيب القلب شوف
مع طيفك أرسلت الروح ... أترجاك تعمل معروف

***

حبيبى هجرنى شوفوه لى يا ناس ... شردمنى ونفى ابده الكاس
كوى قلبى ده يصبح يا ناس ... اترجاه يعمل معروف

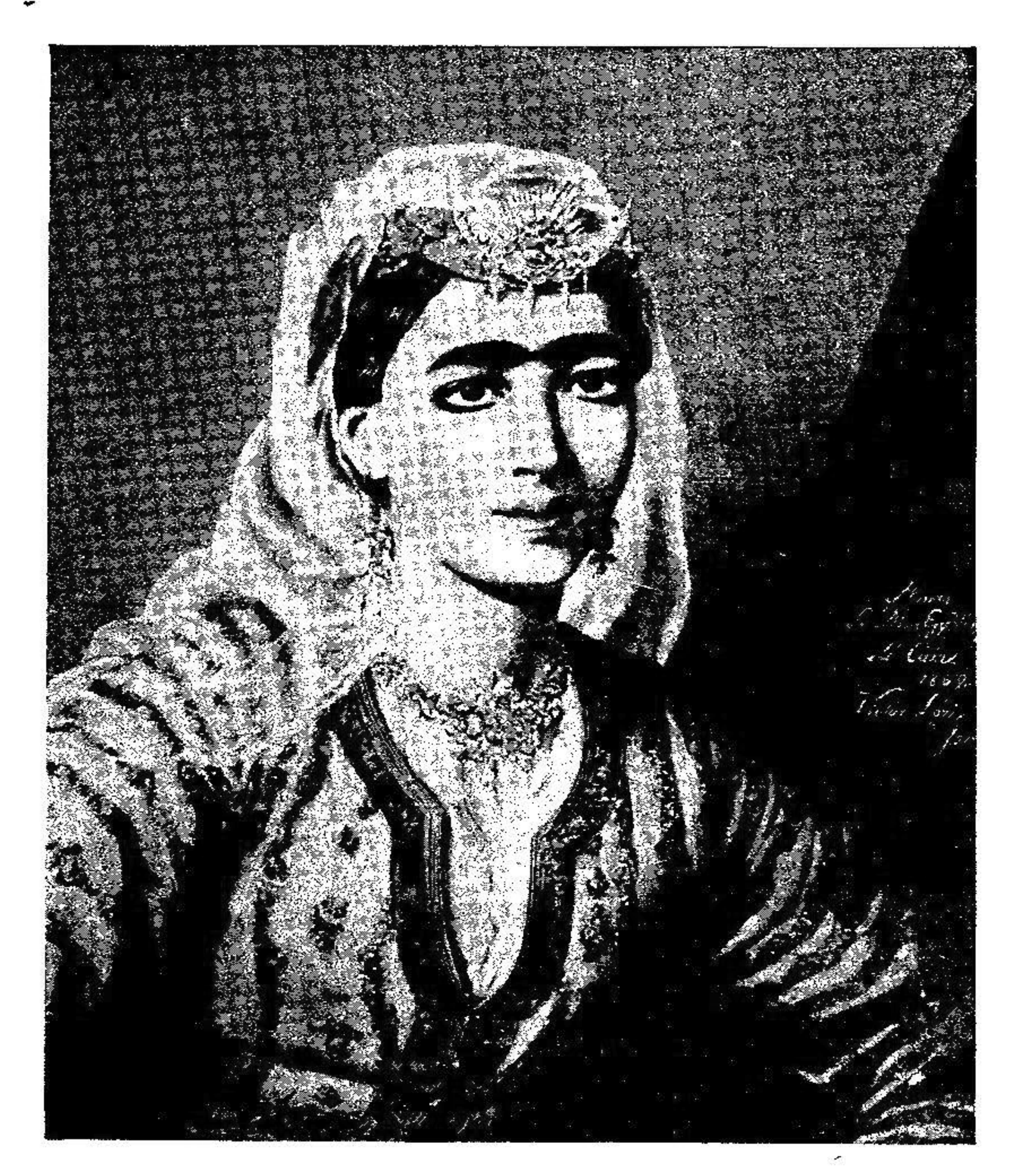
روى لى صديقى محمود بك خاطر ان السير بارنج (لورد كرومر) سمع يوماً "ما هذا الدور ، فلما ترجم له « حبيبى هجرنى شوفوه لى ياناس » قال : « هكذا المصرى : حتى الحبيب يكلف الناس بالبحث عنه ، ولا يجتهد هو فى أن يبحث!! » .

أما ألماس فكانت فى بدء حياتها فتاة فقيرة تعمل بالأجر وتحمل مواد البناء فى أوانيها المعروفة مع سائر الأجيرات ، وتنشد لهن الأغانى الساذجة ، ويرددن غناءها ترويحاً للنفس وتهوينا لمشقات العمل ؛ فلفت ذلك نظر مغنية معروفة (عالمـــة) تسمى (الأوسطى ساكنة) وكانت تسكن الحى الذى تسكنه ألماس، فأخذتها من أبيها وعلمتها أصول الغناء ؛ حتى نبغت فيه واشتهر أمرها ، وذاع صيتها وتزوج بها عبده الحمولى الذى غنى فيها بعد وفاتها :ــ

شربت الصبر من بعد التصافى ... ومر العمر ما عرفتش أصافى
عدانى النوم وأفكارى توافى ... عدمت الوصل يا قلبى عليه

ومن أدوارها المعروفة :

الوَىّ الوَىّ * يا مهلالى من الله * عشقك يا خىْ



السيدة الماس

لازم أهشه ، ده العصفور   وانكش له عشه ، ده العصفور

دا ابن الأكابر ، ده العصفور   على العشق صابر ، ده العصفور

* * *

طار وعلا ، وعلا وطار   ونزل على ، بيت العطار

وكبش ملبس ، وادانى   ولوز مقشر ، واعطانى

لازم أهشه ، ده العصفور

يا سيدى أنا أحبك لله   وربنا عالم شاهد
لاصبر على احتكام الله   لما يبان لى معاك شاهد

* * *

خبط الهوى على الباب   قلت الحبوه أهو جالى
أتارى الهوى كداب   يضحك على القلب الخالى

* * *

ليه يا حمام بتنوح ليه   فكرتنى بالحبايب
يا هلترى نرجع الاوطان   ولا نعيش العمر غرايب

وغنت أيضاً بعض الأدوار التى كان عبده يغنيها .

الفروسية والألعاب الرياضية . كذلك أنشأ اسماعيل من الملاهى مسرحا لألعاب الفروسية والجباز (ليبودروم) . ويحد هذا الموضع من الشرق، شارع عماد الدين ، ومن الجهة القبلية شارع قصر النيل ، ومن بحرى شارع المناخ ، ومن الغرب شارع المدابغ ، وكانت جدرانه مزينة من الخارج برءوس الخيل .



التحطيب

وكانت تقام لعبة « التحطيب » فى حوش الشرقاوى ، وذلك بأن يبرز لاعبان يمسك كل منهما عصا طويلة (نبوت) ، ويتبارزان كما فى العاب الفروسية . وإذا كان اللاعب ماهراً فربما برز له اثنان ، والناس حولهم يشاهدون .

ومن الألعاب خيال الظل « والأراجوز (١) » وكان يهرع لمشاهدة هذه الألعاب الكثيرون من الصبية وحتى من الرجال خصوصا فى أيام الموالد .

الأفراح . كان أكابر القوم يبالغون فى نفقات الأفراح ويبذرون المال بغير حساب ، سواء فى المآدب أو الزينات ومعالم الافراح ، ولا يكتفون بليلة واحدة . بل يحيون فى العادة ثلاث ليال ، منها ليلة الخضاب « الحناء » وهى التى تقام قبل ليلة الزفاف بمنزل العروس .

أما العريس فكان يجتمع بمنزله قبل يوم الزفاف أصدقاؤه الاخصاء ، ممن يجيدون العزف على الآلات الموسيقية والغناء . وكانت هذه الاجتماعات تسمى « بالضمم » ، فيقضى الجميع لياليهم فى سهرات لطيفة ، بين ألحان الموسيقى ونغمات الغناء .

وفى ليلة الزفاف كان العريس يرسل العربات الفخمة مع والدته ، لأخذ العروس من بيت أهلها . وتكون العربة المخصصة لها مزينة بالشيلان الكشميرية ، يجرها اثنان أو أربعة من جياد الخيل ، ويخفرها اثنان من الأغوات على الجياد ، « والمقدم » التابع للعروس ، وهو يسير على قدميه بجانب العربة . وكان هؤلاء الثلاثة والسائس يرتدون « شيلانا » من الكشمير تهدى اليهم من العريس . وكان المتبع فى سير الموكب أن تتقدم والدة العريس على العروس لتقودها إلى المنزل ، ثم تتلوهما والدة العروس . ويسير هذا الموكب خلف الموسيقى فيطوف بعض الشوارع الهامة حتى يأتى إلى منزل العريس ، فيتقدم هنالك لاستقبال عروسه ، فتأبى وتتمنع ، ولا تنزل الا بعد الحاح كثير . وعندئذ تنحر الذبائح على عتبة باب المنزل ويسير العريس مع عروسه حتى باب الحريم بين صفين من الأغوات فى فناء المنزل يمسكون بالشيلان الكشميرية لمنع الرجال من رؤية العروسين . ثم يستقبلهما المغنيات « العوالم » ويسرن أمامهما فى وسط المدعوات إلى « الكوشة » — وهى عرش مزخرف أعد خصيصاً للعروس ، والى جانبه مقعد لعريسها . وفى أثناء ذلك تبذر « البدرة » — وهى عبارة عن نقود ذهبية صغيرة من ذات الخمسة القروش — أو فضية من ذات القرش الواحد — يبذرها أهل العروسين

---

(١) وهى كلمة تركية تعريبها « العين السودا »

على رأسيهما ، فتلتقطها الخادمات وبعض المدعوات بقصد « البركة » . والغرض منها صرف الحاضرات عن النظر للعروسين منعاً « للعين » !

ثم ينزل العريس إلى المدعوين من الرجال . وبعد ذلك يحتفل العوالم بالعروس فيرقصن ويغنين أمامها وهى فى « الكوشة » ، ثم يطفن لجمع « النقطة » من المدعوات كل بحسب ما تجود به ، ثم تقدم للعروس هدايا من أهل العروسين ومعارفهما ، وهى عادة من الشيلان الكشميرى ، فى لفائف من الحرير ، عليها أسماء مهديها ، فتعلن فى وسط الجموع وبعد تسليمها تفرش تحت أقدام العروس .

أما العريس فكان يخرج بعد تناول العشاء ، يحوطه جماعة من أصدقائه ، ويحف به اثنان يحملان باقتين من الورد ، ويتقدمهم بعض الخدم وهم يحملون « الفنايير » ذات الشمعة الواحدة ، ما عدا الاثنين اللذين يتقدمان العريس ففنيارهما بعدة شمعات ، ويؤلفون موكباً « زفة » تسير أمامه الموسيقى يتقدمها حاملو المشاعل الى المسجد ، حيث يصلى العريس ركعتين ، ثم يعود بموكبه الى المنزل . وعند دخوله الى الحريم تزفه العوالم الى « الكوشة » وتعاد عملية البدرة . ثم يتقدم العريس الى عروسه فيرفع ما على وجهها من « الدواك » (١) ويراها لأول مرة ويجلس برهة بجانبها ، يقدم لهما فيها الشراب ، ثم يختفيان عن العيون .

وعلى هذا المنوال كان الاحتفال بزواج أخى محمود وهى وشقيقتى ، فى ليلةواحدة . ولضيق منزلنا أقام والدى العرس فى منزل على آصف باشا بدرب الشمسى ، وهو متسع الفناء وغنت فيه المطربة الشهيرة « الوردانية » فى الحريم ، كما غــنى « عبده » فى الرجال بالتناوب . ولا زلت أذكر تجوال « المطيب » وهو يدعو الحاضرين للاستماع مصفقاً بيديه منادياً : « هس . سمع »

واذكر انه بين تناوب الاثنين كان يظهر قزم مضحك ، يسمى « الصدفجى » فيضحك المدعوين بنكاته . ولاتزال فى ذهنى صورته وقد شدوه فى بكرة الى أعلى السرادق ، وهو يصيح محركا يديه ورجليه بين الضحك والتصفيق .

أما أفراح الطبقة الفقيرة فان موكب العريس كان يختلف فى استعمال المشاعل بدل

---

(١) الدواك عبارة عن نقاب شفاف يوضع على الرأس ويتدلى على الوجه ثم ينسدل منه خيوط قصبية رقيقة .

« الفنايير » والطبل البلدى والمزمار غالباً بدل الموسيق . وكان العريس يقـدم لأصحابه «شراب البوظه» عند مرور الموكب أمام أحد محلاتها ؛ فكان منهم من تبلغ به النشوة حداً كبيراً ، فيطلب أن يرقص امام المزمار ؛ وتقع اذ ذاك مصادمات كثيرة منشؤها التزاحم بين « الفتوات » على الرقص



« التختروان »

وأما العروس فكانت تلبس أفخر ملابسها ، وفوقها « التلى » ، وعلى رأسها «قرص» مزركش ، وتمشى تحت كلة « ناموسية» ، يمسك بها جماعات من الرجال ؛ ويكون معها غالباً اثنتان من صديقاتها ، وخلفها طبلتان ، وأمامها جماعة من الفتيات يسرن اثنتين اثنتين فى صف طويل ، وبجانبهن « المقدم » يلبس لباساً نظيفاً ، ومهمته تنظيم الصفوف من البنات فى كثير من التهويش ؛ وامام هؤلاء جميعاً يسير الطبل البلدى او الموسيقى البسيطة يتقدمها احياناً « النقرزان (١) » والهودج (التختروان) وفيه بعض المغنيين حتى منزل العريس .

---

(١) وهو طبل من النحاس له صوت عال يوضع فوق جمل مبهرج يركبه ضارب الطبل .



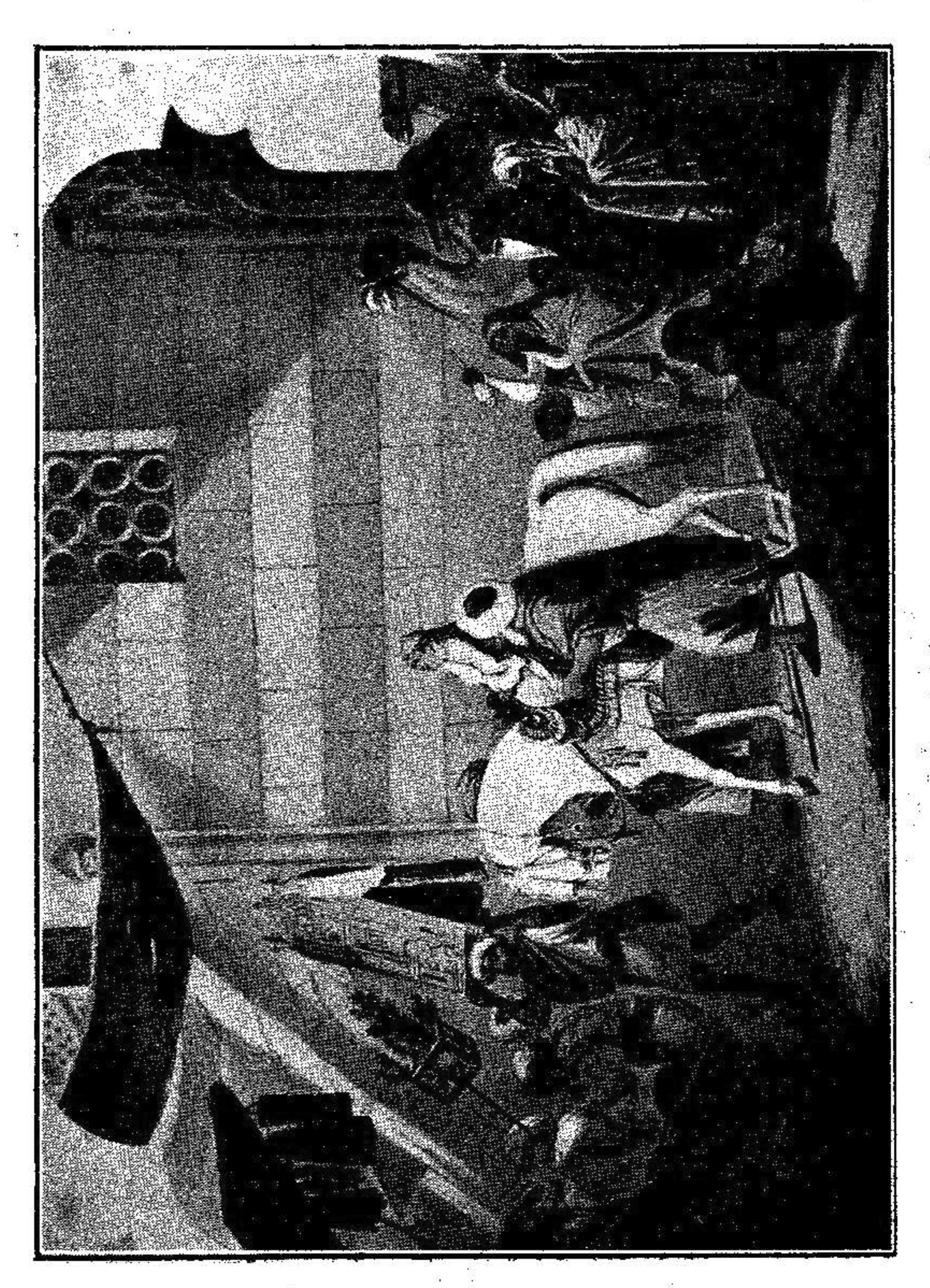
(زفة العروس عند الطبقات الفقيرة)

حفلات الختان . أما عملية « الختان » فكان يختار لها فرصة حفلة زواج غالباً لتقام لهما حفلة واحدة ؛ كذلك كانت تعمل وحدها فى بعض الأحيان . وكان الطفل الذى يراد ختانه ، يلبس كساء عليه القصب ، ويضع منديلا حريرياً على فمه ، ويطاف به على حصان ، وتتقدم الموسيقى « الزفة » ؛ وتارة كان يركب عربة ، ومعه الحلاق الذى يقوم عادة بعملية الختان .

وكان المتبع فى طبقات الأغنياء ، عند ختان ابنائهم ، أن يأخذوا أبناء أصدقائهم

لاجراء عملية الختان لهم فى منازلهم ، ويبقون بها حتى يتم شفاؤهم . وقد كان ختانى فى منزل بالمغربلين لحافظ باشا صديق والدى، احد كبار الموظفين ، وكنا نبلغ نحو خمسة عشر صبيا

وبعضهم كان يدعو إلى منزله فى هـذه المناسبة أبناء الفقراء ، فتعمل لهم العملية ، ويقدم لهم الطعام المناسب حتى يبرءوا .



(زفة الطاهر)

سيطرة الطلبة على الأفراح. ولقد كان للطلبة سهم وافر فى مشاهدة الأفراح، اذ كانوا مغرمين بسماع المطربين المشهورين، والمطربات الذائعات الصيت، وكانوا يعرفون من بائعى «اللب» مواعيد الحفلات التى تقام، فيذهبون اليها؛ وهناك يطلبون غناء بعض الأدوار التى تروق لهم؛ فاذا لم يجب طلبهم، كان ذلك نذيراً بفساد الحفلة، اذ يعمدون عندئذ الى الضجة والصخب، والعبث بالكراسى والمصابيح، يقلبونها رأساً على عقب، وتنتهى الليلة على غير ما يرام.

أفراح الأنجال. ومن الأفراح التى شاهدتها فى عهد التلمذة «أفراح الأنجال» وهم توفيق، وحسين، وحسن، أبناء الخديوى اسماعيل، بزواج البرنسيسات: أمينة خانم أفندى كريمة الهامى باشا، بن عباس باشا الأول.



أمينه خانم افندى عروس توفيق

وعين الحياة خانم أفندى، بنت البرنس احمد باشا بن ابراهيم باشا الأول



عين الحياة خانم افندى عروس حسين

وخديجـه خانم أفندى ، بنت البرنس محمد على الصغير بن محمد على باشا الـكبير .
وزواج اختهم البرنسيس فاطمه خانم أفندى ، بالبرنس طوسون بن محمد سعيد .



فاطمة خانم افندى عروس طوسون



خديجة خانم افندى عروس حسن

وقد ابتدأت هذه الأفراح بحفلة العقد «كتب الكتاب» التى دعى اليها — غير أعضاء الأسرة الخديوية — العلماء، والنظار، وكبار الأعيان، فى سلاملك القصر العالى. وكان يرأس الحفلة خليل اغا، الذى كان محل اجلال الجميع، حتى كانوا يقبلون يده عند المقابلة لنفوذه الكبير عند اسماعيل ووالدته، وكلمته فى الدوائر الحكومية؛ وبذلك أصبح من ذوى الثروات الضخمة.


خليل أغا

ابتدأت الحفلة بقراءة القرآن الكريم؛ ولما تم اجتماع المدعوين دخل الشهود الى داخل الحريم يتقدمهم الأغوات، حتى إذا وصلوا الى باب العروس، المسدول عليه الستار، سألوا العروس التى كانت بالداخل محاطة بقريباتها وصاحباتها: «هل تقبلين أن يكون فلان زوجك»؟

على أن هذا يعقبه سكون تام، فيعاد عليها السؤال ثانيا وثالثا الى أن تجيب العروس بالقبول، فينصرف الشهود الى «السلاملك» ويمضى العقد، وتقدم الشربات فى أقداح من الذهب وتوزع الشيلان على المدعوين

وقد دامت حفلات الأفراح أربعين يوماً كاملة، زينت فيها الشوارع المؤدية إلى «القصر العالى» مقر والدة اسماعيل، المطل على النيل.

وكان امام القصر رحبة (١) فسيحة جدا، يفصلها عنه شارع قصر العينى الآن، وقد نصبت بها السرادقات الفخمة المتعددة، لاستقبال المدعوين، يتناولون صنوف الطعام فى بعضها؛ ويتمتعون بمشاهدة الألعاب، وسماع الغناء فى البعض الآخر. فقد غصت هـذه الساحة بالفرق الموسيقية، والغنائية، وفى مقدمتها تخت عبده الحمولى، وبأنواع الملاهى الاخرى؛ كما كان فوق قوس النصر (٢) فى شارع المبتديان، فرقة المزمار الشهيرة بجوقة «الفناجيلى» الدمياطى.

(١) هى الرحبة التى يشغلها الآن حى المنيرة
(٢) الذى نصب غرب شريط سكة حديد حلوان

كذا حضر كثير من الفرق التمثيلية ، والجوقات الموسيقية ، وفرق الحواة المصرية والاجنبية .

ومن أعجب ماشهدته فى تلك الحفلات امرأة « بهلوانة » يطلق عليها إسم « أم الشعور » وكانت تمشى فوق الحبل على ارتفاع كبير ، وتحمل معها وهى كذلك شاة صغيرة فتذبحها كأنها فوق الأرض ، متمكنة فى جلستها .

وكذا شاهدت أحد الأفرنج واقفا على منصة مرتفعة ، وفوقه على بعد أمتار ، نور ساطع على هيئة القمر ، وكنا فى أشد الاستغراب لهذا الشكل القمرى المتقن الجميل(١)

ولمناسبة هذه الأفراح دعا اسماعيل تلاميذ جميع المدارس ، وطلبتها للاشتراك فيها بتناول الطعام ، ومشاهدة الألعاب ، وسماع الأغانى .

وكانت تقدم الذبائح والخبز الى بعض الفقراء والمحتاجين ، والى البعض الآخر فى أماكن مخصوصة منها : اللحوم ، والديكة الرومية ، والدجاج ، والخبز والحلوى ، وغيرها

وكانت النيازك « السواريخ » تطلق من حديقة الأزبكية .

جهاز العروس . كان جهاز كل من عروس البرنسين حسين وحسن ، وكذلك جهاز البرنسيسين فاطمة خانم وأمينه خانم ، منسقا فى ثلاث غرف فسيحة بالقصر العالى للغرض على الانظار ، وهو يتكون من أنواع الحلى المختلفة الاشكال ، المرصعة بالجواهر والماس ، هذا عدا الأوانى الذهبية ، والفضية ، والمرايا ، وفناجين القهوة بأظرفها الذهبية المحلاة بالجواهر ، وافمام الشبوكات التى من الكهرمان المطوق بالذهب المحلى بالجواهر .

وكان كل جهاز من الجهازات الأربعة ، يطاف به فى أنحاء المدينة محملا على عربات تحت حراسة الجند الراكب ، تتقدمها فرقة موسيقية لارسالها الى سراى العروس ، وكانت الشوارع التى يمر بها مزدحمة بالجماهير الغفيرة ، وكذلك كانت شرفات المنازل والفنادق غاصة بالمتفرجين .

وبعد ظهر يوم الأحد ١٩ يناير . توجهت عروس توفيق باشا — التى كانت تقيم فى سراى الحلمية مع والدتها منذ عقد العقد — الى القصر العالى ، لتقضى فيه حتى الخميس ، ولتشاهد الحفلات التى تقام فيه بهذه المناسبة ، ولتزف بعدها الى سراى زوجها .

وكان من المقرر اقامة المآدب العديدة فى الخارج للاجانب والمصريين ، وفى داخل الحريم للاجنبيات ، وعدد عظيم من الوطنيات .

داخل السراى . كان الأغوات يرشدون ويصحبون المدعوات الى داخل الحريم ، على حين كانت القلفوات ، ومعهن بعض من تكلم اللغات الافرنجية واللغة التركية ، فى استقبالهن من الوطنيات والأجنبيات ، فيحملن عنهن ملابسهن الخارجية

---

(١) لم تكن الكهرباء قد عرفت بعد

« اليشمق والفرجية » ومعاطف الافرنجيات ؛ ثم يرافقنهن إلى الأمكنة التي أعدت لكل منهن ، بين عزف الموسيقى بجوقاتها المختلفة ، وأصوات المغنيات ، ومناظر الرقص بأنواعه (كما يراه القارىء مفصلا فى الفصل المعقود للحياة الداخلية فى قصور اسماعيل ووالدته) وبعد تقديم التهانى للوالدة وللاميرات ، تقدم للمدعوات القهوة والسجاير ، وعند تكامل حضور الأميرات ، وكبيرات المدعوات ، يقمن الى غرفة المائدة ؛ وهى غرفة فخمة وواسعة تتدلى من سقفها فى الوسط ثريا كبيرة ، على حين زينت الجوانب الأربعة ، بأشجار نخيل ، مصنوع من البللور ، ذى جذع سميك ، كأنه المنشور الزجاجى يعكس الأضواء التى تسقط عليه ، من ثريا مثبتة فى أعلى الشجرة ؛ وكانت المائدة على الطريقة الافرنكية

ويلبس الأميرات الملابس الفخمة الافرنجية التى جلبت خصيصا من أشهر محلات « المودة » بباريس ، وقام بضبطها وتكييفها على الجسوم أجنبيات مختصات بفن الخياطة بمصر ؛ وقد جلسن بثيابهن البديعة حول المائدة ، يشنف أسماعهن أثناء المأدبة فرقة موسيقية ماهرة

وبعد العشاء يرجعن الى الصالون الأول ، وهناك تقدم لهن القهوة والسجاير ؛ ثم ينزلن إلى صالون كبير فى الدور الأول ، تجلس الوالدة فى أحد أركانه ، فيقدمن لها التهانى كل بدورها ، ثم تبدأ الراقصات ، وتتعدد أنواع الرقص من تركى الى «مازوركه» الى « بولكه » — وهما رقصتان مزدوجتان على نحو الرقص الأفرنجى غير أن احدى الراقصتين تكون بملابس رجل — الى رقص السيف ، الذى يرقصنه بخفة ورشاقة .

وكانت الجوقات التى استدعاها الخديوى اسماعيل كما قدمنا ، تقوم بألعابها فى جزء من البهو المفصول بشيش لتتمكن الزائرات الجالسات فوق « شلت » من مشاهدة التمثيل بدون أن يتمكن أحد من رؤيتهن من خلفه

وكان الممثلون بين الفصول يخرجون لتناول المرطبات فى محل مخصوص ، معصوبى الأعين ؛ ويقودهم الأغوات إلى المقصف الموجود داخل الحريم ؛ ويفعلون مثل ذلك عند عودتهم لاستئناف التمثيل

وفى الساعة العاشرة تزف العروس ، ويصطف الأغوات صفين ، وبيد كل واحد « فنيار » ذو شمعات تعطى ضوءاً كبيراً ؛ وبين هذين الصفين تسير العروس فى أبهى حلل العرس ، مسدولا على وجهها الدواك الذهبى الرفيع ؛ وتكون العروس محلاة بأكثر ما يمكن أن تحتمله من الحلى والجواهر الكريمة ؛ ويسندها فى مشيتها اثنان من الاغوات ؛ ثم تبدر عندئذ البدرة الفضية ، التى تحملها احدى «القلفوات» فى كيس كبير

وعند ما تصل العروس إلى غرفة العرش « الكوشة » تجلس على مقعد عال بين أمها وبين الوالدة .

ويكثر التزاحم على الدخول لمشاهدة العروس فى حليها الجميلة بسهولة ، وهناك تنثر البدرة الذهبية .

وبدلة العروس مرصعة من الرأس إلى القدم بالماس . ثم تخرج العروس من غرفة العرش وتتوجه إلى غرفتها الخصوصية ؛ ثم تخرج بعدها البرنسيسات وتنفض الحفلة

وبعد ظهر يوم الخميس ينتظم موكب زفافها للذهاب إلى سراى زوجها ؛ ويتقدم الموكب الموسيقى السوارى ، وفرقة من المشاة ، وأخرى من السوارى ؛ ثم يتبع ذلك العربات المقفلة فيها البرنسيسات قريبات العروس ؛ ثم تأتى عربة العروس - وهى عربة تشريفة كبرى مذهبة يجرها ستة من كرام الخيل - ويقف فى مؤخرة العربة اثنان من الفرنساويين بزيهم المخصوص الأبيض القصير الملاصق لأجسامهم ، وصداراتهم ذات الأزرار المذهبة وقبعاتهم ؛ ويلبس الحوذى والذى بجواره مثل تلك الملابس أيضاً ، على حين يركب آخر فى نفس الزى على الحصان الأول الأيمن ؛ ويحف بالعربة صفان من الأغوات على جيادهم ؛ وكلهم يرتدون الشيلان المهداة لهم ؛ ويلى ذلك العربات الخصوصية لكبار المدعوات لمرافقة العروس ؛ وعند وصول العروس إلى سراى زوجها يستقبلها الزوج ، وتنحر الذبائح ، وتزف داخل الحرم ، ويحسر زوجها النقاب المبرقعة به عن وجهها .

الزواج . ولعل من المناسب هنا أن اذكر شيئا عاما عن الزواج فى ذلك العهد : فقد كانت رسومه تتم خفية عن الزوجين ، فلا يعلمان عنها شيئا ؛ وكانت الاسرة هى التى تتولى أمر الخطبة ، أو ينيبون عنهم الخاطبة دون أن يكون للخطيبين نفسهما أية إرادة . بل لقد كان الغلو فى ذلك يصل إلى حد أن بعض أفراد أسرة الخطيب نفسا لا تعرف شيئا عن خطيبة ابنها إلا ما ترويه (الخاطبة) . وقد حدث لى ذلك مع أسرة شريفة ؛ فبعد أن انتخبتنى هذه الأسرة لأكون زوجاً لابنتها ، عدل عن ذلك لمجرد رغبة والدتى فى رؤية الفتاة المخطوبة .

وقد كان لهذه العادة عيبها ، إذ كان يحدث نفور بين الزوجين أحيانا حتى فى ليلة الزفاف — كنتيجة لعدم تعارفهما قبل أن يكونا أسرة — على أن الشرع يبيح رؤية الزوجة .

وفى ذلك الوقت — حيث كانت المحاماة فى دور البداية ، وكان المشتغلون بها من بيئات مختلفة ، ولم تكن مواهبهم قد ظهرت بعد حتى تجعل لهم مركزاً اجتماعياً جديراً بالاعتبار — فى ذلك الوقت كانت الأسر الطيبة تنفر من تزويج بناتها بطائفة المحامين خوفا من التعيير، للاعتقاد السائد يومئذ بان المحامى رجل يقلب الحق باطلا والباطل حقاً!!

فاذا تمت الخطبة يتقدم العريس الى عروسه بهدية (نيشان[1]) وهى حلية من الجواهر أو الذهب المرصع بالجواهر، أو الذهب الخالص، حسب قدرة العريس دون مغالاة ؛ كما كان المهر كذلك لا مغالاة فيه فلا يعرف أهل ذلك العصر أزمة الزواج !

وفى حفلة كتب الكتاب توزع « شوْرات » وهى قماش مقصب فى أركانه الأربعة ، توضع كل قطعة منه داخل منديل من الحرير ، يوزع على المدعوين فى الحفلة .

المآتم والجنائز كان نظام الجنازة بالنسبة للأسر الغنية أن يتقدم الموكب « الضحايا » من الجاموس أو البقر ، ثم « الكفارة » وهى جمل يحمل صندوقين « صحارتين » مملوءتين بالخبز، وقد اقتعد غارب الجمل رجل يوزع طول الطريق بما عبئت به الصناديق من الخبز ؛ كما يتبعه جمل آخر على نفس الصورة لتوزيع التمر الجاف والفاكهة ثم طائفة من عسكر البوليس ركبانا أو مشاة ؛ ثم أرباب الطرق المختلفة والمولوية، وقراء دلائل الخيرات ، وحاملو القماقم والمباخر ينثرون ماء الورد وأريج البخور فى الطريق وقد حزمت أوساطهم بقماش رقيق من الحرير « الزردخان » ؛ ثم غلمان المكاتب ينشدون قصيدة البردة المعروفة ، فالنعش يتبعه أهل المتوفى والمعزون ؛ ثم السيدات وتنحر الذبائح على باب القبر عند وصول النعش ، وتوزع لحومها على الفقراء

أما المآتم فكانت مظاهر الحزن فى الأسر الكبيرة رزينة ؛ وفيها حشمة ووقار ؛ وكانت ليالى المآتم فى العادة ثلاثا ؛ ثم تقام بعد ذلك حفلات متعاقبة فى الأخمسة الأربعة التالية ؛ وكانت تنصب السرادقات ، وتمد فيها الموائد الكثيرة للمعزين فكانت حالة ينطبق عليها المثل العامى « موت وخراب ديار » يختم ذلك بليلة الأربعين.

أما المظاهر المفجعة الشديدة فكانت تبدو فى الطبقات المتوسطة والدنيا ، حيث كانوا يشيعون الميت بالندب ، والعويل ، ولطم الخدود حتى المدافن ؛ ثم يحضرن النادبات فى الايام الثلاثة والأخمسة . وكان المتبع عندهم أن تصبغ الملابس بالنيلة وأن يغطى الأثاث بالسواد . وظلت هذه العادة حتى ألغيت بأمر الخديوى توفيق .

---

(١) وهى المعروفة الآن (بالشبكة)

فوضى القضاء . القضاء الأهلى . لما تولى اسماعيل وجد أن أحوال البلاد لاتسمح ببقاء حالة التقاضى على ما كانت عليه فى زمن اسلافه من الفوضى المطلقة ، وعدم وجود قوانين يحكم بمقتضاها

فأصدر أمره فى (ديسمبر سنة ١٨٦٤) بتعديل بعض المجالس واختصاصاتها، وأهمها جعل مجلس مصر ومجلس الاسكندرية مجلسى استئناف (ابللو) وجعل « مجلس الأحكام » مجلساً عالياً ، لمراجعة الأحكام وتطبيقها على القوانين بمثابة محكمة نقض وابرام « روكيت سفيل»

وفى (يونيو سنة ١٨٧٠) صدر أمره الى مجلس الأحكام بتشكيل المجالس كلها على ترتيب جديد ، وجعلها خمسة عشر مجلساً بدلا من تسعة مجالس فى جميع المديريات والمحافظات . وجعل خمسة مجالس لاستئناف القضايا (ابللو) . وفى تلك السنة انشئت لائحة لم يبين بها طرق المرافعات، ولا القانون الواجب اتباعه ، بل كلها لغو وحشو ؛ وكل مايستفاد منها احالة الخصومات الجزئية على جهات الادارة . وكان المأمورون والمديرون ورؤساء المصالح هم الذين يحكمون فيها بناء على المنشورات التى تصدر من مجاس الأحكام والمجلس الخصوصى ، الذى كان قد تشكل بأمر من اسماعيل فى سنة ١٨٧٢ للنظر فى المسائل الهامة بأنواعها ، ومنها النظر فى القضايا التى ترفع من الأفراد على الحكومة .

ومع ذلك كله لم يسن قانون لهذه المجالس على كثرتها ، بل استمر العمل جارياً بمقتضى القوانين التى كانت متبعة فى عهد المرحوم سعيد باشا ، فظل اختلال القوانين واجمالها وابهامها ونقصها يؤدى الى ضياع الحقوق ، ويوقع المتقاضين فى الارتباك . وبالجملة فقدكانت حياة المتقاضين موقوفة على الوشاية ، وكانت المحاكم لاتعرف لنفسها اختصاصاً، لأن الادارة كانت تسيطر على كل شيء ؛ وتنظر فى جميع مصالح الناس صغيرها وكبيرها سواء تعلقت بالمعاملات الخاصة ، أو ارتبطت بالمنفعة العامة .

ولم يتمكن ديوان الحقانية (قبل أن يصبح نظارة) من الاستقلال عن الادارة التى كانت تعتدى عليه ، وتسلبه اختصاصه .

فمثلا كان يوجد فى كل مديرية ، وكل محافظة ، قلم يسمى قلم الدعاوى أو قلم القضايا. وكانت وظيفته تحقيق المسائل الجنائية بأنواعها ، وحفظ ما يرى وجوب حفظه ، واحالة ما يستحق النظر فيه الى المجالس ؛ وكان يباشر التحقيق تحت رياسة المدير ، أو المحافظ الذى كانت له الكلمة العليا . وقد استمر الحال كذلك وديوان الحقانية موجود يعانى هذه الحالة بقدر المستطاع، حتى تمكن من أن يجعل من نفسه سلطة تشريعية تسن القوانين

واللوائح ، راجعاً فى أغلب أحكامه الى القوانين الفرنسية ، و« كتاب المجلة» التى كانت تحتوى على القوانين الشرعية ، والأحكام العدلية ، و«القانون الهمايونى» الذى كان متبعاً فى الاحكام الجنائية المستعملين فى تركيا .

ومن أشهر اللوائح التى سنها ديوان الحقانية ، لائحة عمومية وزعت على المجالس كلها تتألف من أربعين مادة ، اشتملت على قواعد فى الاختصاص ، وأصول المحاكمات . وهى اللائحة التى اشتهرت بين المشتغلين بالقانون باسم (لائحة الاربعين) .

أما المجلس المخصوص ، فهو مجلس ادارى صرف ، وهو الذى أصدر الحكم بنفى اسماعيل باشا المفتش . وفى سنة ١٨٧٢ طلب مجلس شورى النواب من الحكومة تشكيل محاكم الاخطاط والقرى لنظر القضايا الصغيرة ، فأجيب الى طلبه .

القضاء المختلط . ولم يكن الحال فى القضاء مع الأجانب بأفضل من التقاضى بين الأهالى ، بل كان أشد فوضى . فقد كان الأجانب تابعين فى القضاء لقناصلهم ، يقضون بينهم بشرائع بلادهم ، فيما ينجم بينهم ، أو بين المصريين وبين الأجانب فى الدعاوى . وكانت القنصليات حكومات صغيرة داخل الحكومة ؛ وكان الوطنى يضطر إلى رفع الدعوى على الأجنبى أمام قنصليته ، فاذا أراد مقاضاة عدة أجانب من جنسيات مختلفة رفع عليهم قضايا بعددهم ، وتكبد فى ذلك مشاق هائلة ، ودفع رسوماً مضاعفة ، فاذا خسر دعواه كان عليه أن يستأنفها فى محكمة المدعى عليه فى بلده لا فى مصر ؛ وإذا فرض أنه انتهى إلى حكم فى صالحه فكثيراً ما كان المحكوم عليه يحول القضية على أجنبى آخر يتدخل فى الدعوى فتأخذ مجراها من جديد . ولهذا كان يفضل الوطنى ترك حقه بدل هذه التعاريج الطويلة التى يخرج منها صفر اليدين .

ولم يكن الأمر قاصراً على استعمال الامتيازات ، التى منحت للأجانب ، بل توسعوا فيها من أنفسهم ، حتى أصبحت لهم شبه سيادة على المصريين ، وامتدت سلطتهم إلى الرءوس الكبيرة فى البلاد .

ولما رأى اسماعيل هذه الحالة التى لا تطاق ، انتهز فرصة افتتاح قناة السويس للسعى فى تأسيس محاكم مختلطة للفصل فى الدعاوى المدنية والتجارية والجنائية ، فكلف نوبار باشا بأن يدعو لجنة دولية إلى عقد اجتماع فى مصر لبحث هذا المشروع .

إلا أن الأجانب عارضوا بطبيعة الحال ، ووضعوا العراقيل بقدر المستطاع ، فاضطر نوبار للسفر إلى باريس ، ولندن ، وبرلين ، وروما ، وبطرسبرج . ومما زاد المسألة تعقيداً

أن تركيا قامت تنكر على الحكومة المصرية حق الاتفاق مع الدول الأجنبية على هذا المشروع

وأخيراً سافر نوبار للآستانة واستطاع تسوية هذه المسألة .

وكانت فرنسا أكثر الدول عداء للمشروع ، حتى بعد أن قبلته الدول الأخرى ، فلم يعبأ نوبار برأى فرنسا وافتتح إسماعيل المحاكم المختلطة فى سراى رأس التين يوم ٢٨ يونيو سنة ١٨٧٥ .

الحفلات الدينية . وفى تسميتها حفلات دينية مجاز ارتكبناه تمشياً مع الاعتقاد العام ، وان كنا نرى أنها ليست من الدين فى شىء ، إلا فى المقصد الأصلى لاقامتها .

المولد النبوى . يبدأ المولد فى ٢٥ صفر بأن يجتمع رجال الطرق الصوفية بميدان باب الخلق ، وكل طريقة معها أعلامها ؛ وعند تكاملها تسير فى موكب ينشد رجالها ترانيم كل طريقة بنغمتها ، مع دق الدفوف ، وقرع « البازة » ، إلى أن يصلوا مركز مشيخة الطرق الصوفية ، حيث يستقبلهم السيد البكرى ، فتقرأ الفاتحة والصلوات والتسليمات ثم يجتمع مشايخ الطرق لديه فيعلن افتتاح المولد الشريف ، ثم ينصرفون . وفى عصر يوم ٢٨ صفر يجتمع القراء لقراءة آى الذكر الحكيم ، وفى مسائه يدعى الأمراء والعلماء وكبار الموظفين والأعيان لسماع قصة المولد الشريف ، ثم يأتى أرباب الطرق المختلفة جماعات جماعات كل أهل طريقة بدورهم ، وأمامهم حاملو الفوانيس الخاصة بهم – وهى فوانيس كبيرة مغطاة بقماش أبيض رقيق بدل الزجاج – فيستقبلها السيد البكرى؛ وبعد قراءة الفاتحة والصلوات والتسليمات ، يقام مجلس الذكر ، وينشدهم الشيخ الشنتورى . ويستمر احياء الليالى فى سراى السادة البكرية لغاية يوم ٤ ربيع الاول .

وقد شاهدت أحياناً حالة (انجذاب) تعترى بعض الذاكرين فيكونون فى شبه غيبوبة ، ويهدرون ، ويتصاعد من أفواههم رغاء كرغاء الابل ، فاذا اعترتهم هذه الحالة تقدم منهم شيخهم ، فهدأ من روعهم ، وأذهب بتلاوة القرآن ما بهم !

والذى كان يدهشنى أن بعض أرباب الطريقة الخندوشية (المغاربه) حين كانت تعتريهم هذه الحال ، يتناول شعلة من النار فيدخلها فى فمه ، أو تحت أبطه ، دون أن يبدو عليه أدنى تأثر .

ومنهم من كان يقذف حلة من الحديد ، ثم يتلقاها بيافوخه فيسيل دمه دون مبالاة . وبعد ذلك كانت تحيا الليالى فى الساحة التى تخصصها الحكومة ، حيث كانت تنصب

السرادقات كما هو معمول به حتى اليوم . وفى وسطها سرادق الخاصة الخديوية وبجانبه سرادق السيد البكرى .

حفلة الاشاير والدوسة . كانت المعتقدات والتقاليد الخرافية ذائعة منتشرة ، ومن ذلك ما كان يبدو فى حفلة الأشاير ، وعملية « الدوسة » وموعدهما فى يوم ١١ ربيع الاول .

يجتمع فى ذلك اليوم أرباب الطرق الصوفية بميدان باب الخلق بالنظام السابق الكلام عنه ؛ ويسير الموكب بأهم شوارع المدينة . وكانت يومئذ تضم جماعة من المشعوذين ، منهم من يأكل الزجاج والثعابين ، ومنهم من يضرب شدقه بدبوس ذى رأس غليظ فى عنف وقسوة ؛ بل كان بعضهم يضع حد السيف على بطنه ثم ينام فوقه حتى يعلوعليه شيخهم، ثم يبل بزبقه موضع السيف أو موضع الدبوس ليشفى ؛ وعندما يصل موكب الأشاير إلى ساحة المولد النبوى أمام صيوان البكرى يقرأ رجال كل طريقة الفاتحة وامامهم شيخهم بحضور ولى الامر والمدعوين، وبعدذلك ينبطح الكثيرون على وجوههم فى صف كبير ؛ ثم يمر فوقهم شيخ السادة السعدية بحصانه ، يقوده اثنان من اتباعه ، وهم يعتقدون أن سينالهم من جراء ذلك خير كثير . وكان الناس يروحون عليهم بمراوح يدوية ، أو بملابسهم اثناء انبطاحهم على الأرض فى الحر الشديد . وقد أبطل الخديوى توفيق باشا هذه الحفلات العنيفة المزعجة . التى كانت خاصة بطريقة السادة السعدية المنتسبين الى سعد الدين الجبائى دفين (جبا) من ضواحى دمشق .

وفى المساء تمد الموائد فى سرادق البكرى للمدعوين ؛ وبعد صلاة العشاء يشرف الصيوان الجناب الخديوى لسماع قصة المولد النبوى الشريف ؛ وفى ختام قراءة القصة يوزع الحلوى وشراب الليمون على الحاضرين ؛ وينصرف بعد ذلك سموه الى سرادقه حيث يبدأ بالالعاب النارية .

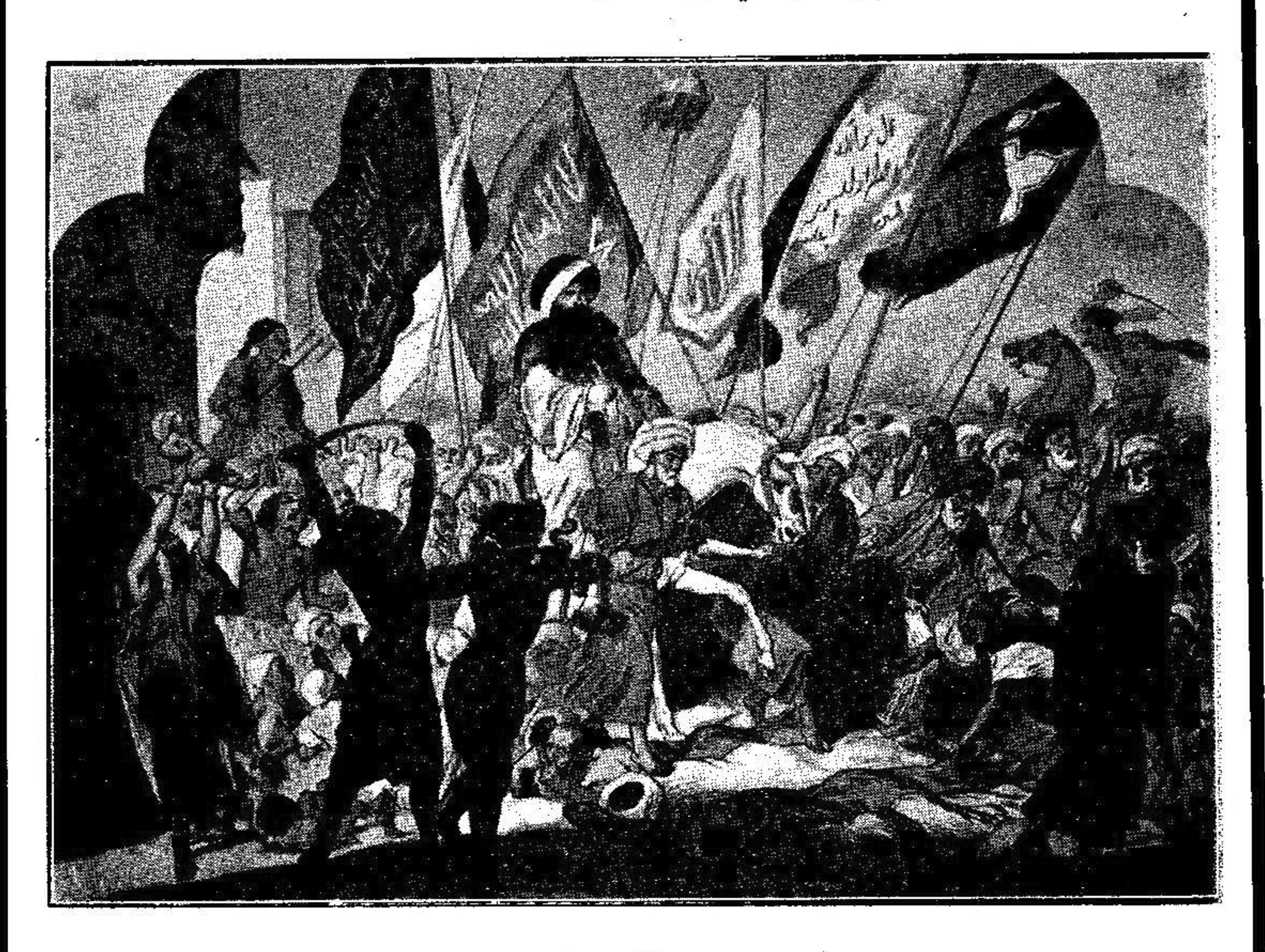
ويزدحم الناس فى هذه الليلة ازدحاماً لا مثيل له لمشاهدة هذه الأذكار ، وسماع أناشيدها ، ورؤية النيازك .

وينتهز الشباب فرصة الزحام ، فيكثر الغزل بين الفتيات والفتيان ، وتمشى رسائل (اللب والفستق) ونحوها بين العربات التى تحمل الجنسين ، مما يجعل من الليلة مهرجانا حظ الفتنة فيه أكبر من حظ الدين ، ان كان للدين حظ فى أمثال هذه الحفلات

ومن أقبح ما رأيت رجل يسمى نفسه « على كاكا » يرتدى جلباباً أبيض قصير وقد حزم وسطه بحبل تدلى منه مايشبه الآلة الجنسية مكبرة ؛ وبيده سوط طويل « فرقلة »

ومعه غلام ، فتجرى بينهما مغازلة مجونية ، بألفاظ مبتذلة غاية التبذل ، فيزدحم حوله خليط من النساء والرجال ، وقد ارتفع برقع الحياء ، وأسفر عن وجوههن الاحتشام وقد يقود البعض البعض الى حيث يقضون ساعات ترضى الشيطان

وحلقة « على كاكا » هذه تنصب فى المولد النبوى وفى الموالد الأخرى ، مما يجعل أمثال هذه الحفلات بريئة من الدين والأخلاق



حفلات الأشاير والدوسة

التكنية . رافقت والدى بعد الافطار فى ليلة ٢٧ رمضان إلى دار السادات الوفائية ببركة الفيل ؛ وكانت ليلة خاصة بمنح (الكنى) . فلما وصلنا الى الدار شاهدنا جمعاً كبيراً محتشداً فى الصالة العربية الكبرى المسماة « أم الأفراح » ؛ وقد جلس السيد عبد الخالق السادات فى وسط هذا الجمع ، وبالقرب منه كاتب أمامه سجل على منضدة صغيرة ، وبجانبه احد النقباء واقفاً . فاذا أراد أحد الحاضرين أن يسمع

(كنيته) يقدم الى السيد عبد الخالق مصحوباً باثنين من النقباء.. وتقرأ الفاتحة وينادى النقيب باسمه بصوت جهورى، وبعد برهة تمر فى سكون وصمت، ينطق السيد عبد الخالق السادات بالكنية التى يختارها له، فيسجل الكاتب اسم الشخص وكنيته والتاريخ

هكذا كان عندما تقدمت بطلب الكنية، وأعلن اسمى ولقبى ثم لفظ السيد بكنيتى فاذا هى : «أبو النور»

وبعد أن سمعنا أنواعا مختلفة من التكنية، خرجنا فسألت والدى عما إذا كانت الكنية التى من نصيبى هذه الليلة تعطى فى المستقبل لآخر، أو اذا تقدمت مرة أخرى ينطق السيد بنفس الكنية ؟

فأجابنى بان المشاع ان كل شخص يأخذ كنية لا تعطى لغيره ؛ ولا تتغير اذا تقدم مرة ثانية. ثم قال : ولكنى شخصياً لا أعتقد ذلك.

حفلة جبر الخليج . كانت العادة عند ما يبدأ النيل فى الزيادة، أن يقام سد عند اتصال النيل بالخليج الذى كان يشطر القاهره شطرين، يستقى منه أهلها. وهذا السد يكون أعلى من نسبة أكبر فيضان ليحجز المياه ؛ وكان يقام فى النقطة المعروفة الآن (بفم الخليج) قبلى الرصيف الذى تقام عليه الآن حفلة وفاء النيل.

وعند تمام الفيضان توقد المشاعل على هذا الجسر، وتنصب الأعلام والزينات والسرادقات، ويدعى لهذه الحفلة النظار، وكثير من العلماء، والذوات، وكبار الموظفين، لتناول طعام العشاء، وسماع المطربين، ومشاهدة اطلاق «السواريخ».

ولا يفوتنا هنا أن نذكر شيئاً عن «العقبة» وهى الفلك «المركب» الذى لا يزال حتى اليوم، كما كان فى ذلك العهد، يزين بالأعلام وغيرها من أنواع الزينات؛ ويركب فيها فرق الموسيقى، والطبل البلدى، والمزمار؛ ثم تخرج من الترسانة، أمام حى بولاق، تتهادى فى النيل، وتطلق وهى سائرة المدافع، حتى ترسو فى المحل الذى لاتزال ترسو فيه الآن

وكيفية قطع السد أن ينتقصوه شيئاً فشيئاً حتى يبقى جزء رقيق ؛ وعند الصباح يتلى الفرمان الذى به يجب الخراج على أهل مصر بحضور العلماء وفى مقدمتهم المفتى، والأعيان، وكبار رجال الحكومة ؛ ثم يزال ما بقى من السد، فتتدفق المياه فى الخليج، وتبدر النقود فرحا وسروراً بهذا الفيضان الميمون.

على أن هذا اليوم يكاد يشبه أيام الأعياد فى القاهرة ؛ وخصوصاً فى البيوت المطلة على الخليج ؛ فيدعو أصحابها أصدقاءهم لمشاهدة تدفق المياه، وتبسط لهم الموائد.